الحلقة الثلاثون

بودلير

obeikandl.com

ما أعجب الشبه، بين هذين الشاعرين العظيمين.. على طول المسافة الزمنية بينهما: شاعر العروبة الأول فيما يسمى بالعصر الجاهلي أو ما قبل الإسلام: «امرؤ القيس»، صاحب معلقة (فقا نبك من ذكرى حبيب ومنزل/ بسقط اللوى بين الدخول فحومل).. وشاعر فرنسا الأول أو شاعر أوروبا الأعظم: «شارل بودلير» الذي خاطب شرفة حبيبته.. قائلاً:

(يا أم الذكريات، يا سيدة الحبيبات

أنت يا كل مسراتي وأنت يا كل واجباتي

أتذكرين حلاوة القبل

ورقة المأوى، وفتنة الأماسي)

.. فقد سمى النقاد الأول بـ (الملك الضليل).. والثاني بـ (الشاعر الرجيم) أو (الملعون).. بينما كان الشاعران يبحثان عن استرداد (سعادتهما)، الأول.. بـ (استعادة) إمارة أبيه، والثاني.. بـ (استعادة) مكانه بين أحضان (أمه) الدافئ وقلبها الحنون، ليموتا بعد أن عاشا سادرين لاهبين بين الخمر والنساء والغلمان.. ميتة متشابهة: الأول

بـ (الحلة المسمومة) التي أهداها إليه قيصر الروم (يوستينبان الأول).. والثاني بحلة (مرض الزهري) التي ألبسه إياها زوج أمه (الجنرال أوبيك) من حيث يدري أو لا يدري، بعد أن انتزعه من أمه.. وألقى به في إحدى مدارس ليون (الداخلية) الصارمة وهو في السابعة من عمره.. ليُطرد منها بعد فشله، ويصيع في شوارعها وأزقتها مع الصعاليك والمهمشين من أبنائها.. ليصاب بـ (الزهري) في آخر أيامه.. ويموت في عز شبابه المنهك وهو في الثامنة والثلاثين - أو.. الخامسة والأربعين - قريباً من صنوه، الذي مات.. وهو في الثامنة والأربعين..!! ولكن بعد أن بلغ كلاهما - رغم قصر عمريهما المأسوف عليه - ما لم يبلغه أحد من قبل في ملكوت الشعر وسمائه وأرضه.. من رائع البيان، وجميل الصور، وحداثة الأفكار والألفاظ.. في موسيقاها المترفة المتفردة.

* * *

بين عامي (٢٩) و(٦٧) من القرن التاسع عشر.. عاش (بودلير) رفاهه وأحزانه وصدماته وألق موهبته الشعرية، التي خاف عليها عندما بلغ السابعة والثلاثين وقد أخذت تشتد عليه مضاعفات (الزهري) وأوجاعه.. ليقول: (هناك ما هو أخطر من الأوجاع الجسدية، ألا وهو أن موهبتي الشعرية المعجبة ووضوح أفكاري وقوة رجائي التي تشكل في الواقع رأسمالي.. تهترئ، تأفل، تتلاشى في هذا الوجود الرهيب المليء بالهزات)!!

* * *

بداية.. أحب (بودلير) أمه العشرينية الشابة (كارولين).. التي كانت مشغولة به وبحبه ولا شيء سواهما، بينما والده (السبعيني) الذي كان وكأنه جده.. يطوف به حدائق (اللكسمبورج) الباريسية الشهيرة، ليطلعه على تماثيل مشاهير أوروبا من الزعماء والفلاسفة والفنانين والشعراء والأدباء.. الذين تزدحم بهم أرجاء الحديقة، وهو يشرح له مواطن الجمال في تلك المنحوتات.. إلى جانب أحاديثه المسترسلة عن روعة العمارة الفرنسية المحيطة بالحديقة، فقد كان هذا الوالد.. موسراً بقدر ما كان مثقفاً، وهو ما أتاح لـ (بودلير) عيشاً رغداً هانئاً.. بين (أمه) التي يحبها حباً (أوديبياً) مبهماً و(أبيه) الموسر ثقافة ومالاً، ولكن تلك الأيام.. لم تطل، ليصعقه نبأ وفاة والده وهو في السادسة أو السابعة من عمره.. لكنه تجاوز تلك الصاعقة مادامت ستخلي سبيل (الحب) بينه وبين (أمه)، والذي كان ينازعه - في بعضه - على الأقل (والده).. لتبقى له أمه بكل حبها وعواطفها وشبابها وزينتها وعطورها، فلا يشاركه فيها أحد!! ولم يدر بخلد طفولته.. أن أمه التي تحبه بجنون وإلى حد الغيرة عليه حتى من مربيته (ماريت).. ستتزوج - وبعد عام واحد.. لا أكثر - من رجل آخر هو (الجنرال أوبيك)، ليغضب عليها (بودلير).. غضبة العمر، وليصبح هذا الجنرال - أو أي رجل آخر كان سيحل محل أبيه - عدوه الأول، الذي يجب التصدي له وحربه، وقد فعل (الطفل) الصغير بودلير كل ما في وسع طفولته أن تفعله لزلزلة حياة هذا (الغريب).. هذا الجنرال، ولكنه لم يستطع أن يبلغ مراده.. بل توافقت (أمه) مع (الجنرال) على إيداعه إحدى

المدارس الداخلية ذات النظام الصارم في مدينة (ليون).. بعيداً عن باريس، ليذهب إليها وكأنه طريد الفردوس أو آدم الجديد الذي هبط من الجنة.. حزيناً مهموماً و(وحيداً) تماماً إلا من ذكرياته الحارقة.. فكان طبيعياً أن تسوء صحته، وأن يتعثر في دراسته، وأن يُفصل من المدرسة المرة تلو الأخرى.. فيرى البؤس وهو يحيط به من كل جانب.. ليبحث عن مخرج فكان هو (الشعر) الذي أحبه، والأدب الذي عشقه، وقراءة الكتب المحرمة في ذلك الوقت.. نكالاً في (الجنرال) المعتز باستقامته، إلا أنه تخرج في النهاية وحصل على (الاجراجسيون) بل وأصبح شاعراً وكاتباً.. لكنه لم ينس ذلك اليوم الأسود العاصف في حياته، يوم أن تزوجت (أمه) من الجنرال.. ليكتب عنه قائلاً: (حين يكون لامرأة ابن مثلي.. فإنها لا تتزوج للمرة الثانية)!!

* * *

بعد أن عاد إلى باريس.. وقد ناف عن الثامنة عشر عاماً، سكن في الحي اللاتيني.. بأضوائه وسهره وفنانيه وفناناته ومسارحه و(سينماته) وبائعات الهوى والحب الشريف معاً.. حيث عاش حياة حرة من كل قيد، فعل فيها ما يقال وما لا يقال من الموبقات.. علها تنسيه أو تعوضه أيام وحدته وحرمانه الطويلة في (ليون)، ولكنها - للأسف - أحزنته بأضعاف ما أسعدته، وشتته.. بأكثر مما وحدته، ليأتيه مرض الزهري باستحالة شفائه.. فكان حظه بالغ التعاسة، إذ إنه كلما أراد أن ينتقم من (الجنرال).. كان وكأنه ينتقم من نفسه!! ليتفق (الجنرال) مع (أمه) على إرساله في رحلة

ترفيهية بعيدة.. إلى جزيرة موريس - أو موريشيوس - في المحيط الهندي، ليعود بعدها - ربما على عكس ما توقع الجنرال - وقد غنم من أجواء تلك الرحلة (إلهامات وصوراً رائعة.. كانت ركيزة لصوره الشعرية الأصيلة).. كما قال الأستاذ مصطفى السحرتي في دراسته التي سبقت ترجمة الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي.. لديوان بودلير الأشهر والأعظم (أزهار الشر)، والتي قدمها.. قبيل رحيله عام ١٩٥٢م، وأعادت طباعتها دار العلم للملايين.. البيروتية عام (١٩٧٧م)، ليراها العالم العربي.. فيتعرف ولأول مرة على الدكتور ناجي (مترجماً) بعد أن عرفه (شاعراً) من خلال قصيدته (الأطلال) التي شدت بها سيدة الغناء العربي أم كلثوم بعد سنين من رحيله عام ١٩٦٦م، وليتعرف العالم - وهذا هو الأهم ثقافياً - على شاعر فرنسا العظيم (بودلير)، وعلى ديوانه الأشهر (أزهار الشر).. الذي اصطخبت فرنسا والعالم حوله عند نشره عام ١٨٥٧م، دون أن يعلم جنوب العالم العربي - ونحن في مقدمته - عنه شيئاً..!؟

عندما عاد (بودلير) من رحلة المحيط الهندي.. كان قد بلغ الواحدة والعشرين، وهو ما أهله للحصول على ميراث أبيه، ليبدأ حياة تعويضية جديدة، أو مرحلة انتقامية جديدة من (الجنرال).. فـ (كان يبحث عن شقية خاطئة، تجمعه بها صلة الشقاء والخطيئة.. فيجد في هذا العامل المشترك بينهما ما يبعث على الشفقة والحنان عند كليهما).. ليقع في حب إحدى بنات الليل الزنجية السمراء (جان دوفيل)، ولكن روح الصلاح والإخلاص.. والتي لم تفارقه - رغم استغراقه في الرذائل بأبشع ألوانها وصنوفها - كانت تشق

طريقها لتظهر على الصفحة الأولى من ديوانه في تلك الكلمة (الحكمة): (سأظل دائماً. وربما إلى الأبد. كذئب وقع في كمين. أثب إلى قمة المثل العليا..).. وليعيشها في حبه العذري لـ (ماري دوبرين) رغم أنه كتب قصائد (أزهار الشر) بين ذراعي (جان دوفيل).. وليكتبها في قصيدته الرائعة (الفجر الروحي)، وهو يقول:

(عندما يطلع الفجر الأحمر على خطيئة
وبينما يختلج الشرف الغالي اختلاجة الندم
فإن هناك تعويضاً غريباً يقوم
إذ يستيقظ ملاكٌ.. من خلف هذه الوحشية
وتتفتح سماوات روحانيته في لاذورد فضي
أمام عيني الرجل الخاطئ المتألم
تتفتح وتتمتع ويكون لها عمق الهاوية
هكذا يا إلهتي يكون الطهر والنقاء
اطلعي على أنقاض المعاصي ودخانها
اطلعي باهرة ساحرة لعيني
لقد غطت أشعة الشمس على أضواء الشموع
فانتصري دائماً
انتصري.. أيتها الروح العظيمة
أنت كالشمس الخالدة)..!!

* * *

لقد قال عنه مترجم ديوانه الدكتور إبراهيم ناجي: (أما أنه شاعر من الطراز الأول فهذا ما لا يختلف فيه اثنان، فالموسيقى التي في شعره لا تجارى. وألفاظه متخيرة تخيراً عجيباً. وكثيرٌ من شعره يُتمثل به، ويجري على الألسنة جرياً مدهشاً)، وأحسب أن هذا الذي قاله الدكتور ناجي عن شعره.. وأفكاره وألفاظه وموسيقاها.. حمل الروائية الفرنسية الرائعة (فرانسواز ساجان) بعد مائة عام من وفاة (بودلير).. على أن تضع قصيدته (الغريب) من ديوانه (قصائد نثرية) كـ (مقدمة) لروايتها ما قبل الأخيرة (السحب الرائعة).. والتي يقول فيها:

[- من تحب أكثر.. أيها الرجل الغامض. قل؟

أباك.أمك.. أختك. أوأخاك؟

- ليس لي لا أب، ولا أم، ولا أخت، ولا أخ.

- أصدقاءك..؟

- أنت تلفظ كلمة لازال معناها مجهولاً عندي حتى هذا اليوم.

- وطنك؟

- أجهل موقعه في العالم.

- الجمال؟

- سأحبه عن طواعية لو كان إلهاً وخالداً.

- الذهب؟

- أبغضه.

- إيه! من تحب إذن. أيها الغريب المذهل؟

- أحب السحب.. السحب التي تمر.. هناك.. هناك.. السحب الرائعة!]

لقد قال عنه جان بول سارتر.. الفيلسوف والكاتب المبدع والمتقد، الذي كتب عنه وعن حياته وعظمته ومأساته وحبه لأمه وسطو (الجنرال) عليها كتاباً تحليلياً فريداً من أربعمائة صفحة.. وبعنوان من كلمة واحدة (بودلير).. حيث قال في أحد سطوره: (إن بودلير.. يريد أن يكون في كل مكان.. إلا الأرض).. لكنه (لم يعش الحياة التي يستحقها)..!!

* * *

فإذا كان (بودلير).. لم يحصل على أي جائزة أدبية من أي نوع طوال عمره القصير والمبدد والشقي، إلا أنه حصل على الجائزة الكبرى أو (الجراند بريه) كما يقول الفرنسيون.. من المثقفين في عمومهم بامتداد العالم، ومن الأدباء والشعراء والنقاد في خصوصهم.. إذ يكفيه قولهم: (إذا بدأ الشعر الفرنسي بـ «بودلير» فإنه لابد وأن ينتهي بـ «رامبو»، وإذا بدأ بـ «رامبو».. فلابد أن ينتهي بـ «بودلير»)، وفي هذا ما يكفيه.. ليكون أحد رموزه الخالدين!!